

تعليقان

للدكتور إحسان عباس
عضو مؤزر في المجمع

- ١ -

أتيح لي أن أطلع على أعداد مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، بعد أن وصلتني متأخرة عن تاريخ صدورها، فاستوقفني في العدد المزدوج ١١ - ١٢ (كانون الثاني - حزيران ١٩٨١) بحث بعنوان "رأي في تحديد عصر الراغب الأصفهاني" للدكتور عمر عبدالرحمن الساريسي (ص ٤٣ - ٧٦)، وقد انتهى الباحث في دراسته إلى أنّ أبا القاسم الراغب الأصفهاني كان في الأرجح معاصراً للصاحب بن عباد، ثم من بعده للوزير أبي العباس أحمد بن إبراهيم الضبي المتوفى عام ٣٩٩، أي أنه من رجال القرن الرابع وربما أدرك أوائل القرن الخامس، وأن المصادر التي جعلت وفاته سنة ٥٠٢ أو ٥٦٥ قد وقعت في الخطأ. وقد حشد الباحث كثيراً من الأدلة المرجحة على تفاوتها بعداً وقرباً ليصل إلى هذه النتيجة.

ولست في هذا المقام أناقش ما أورده من أدلة ولكني أحاول أن أضيف إليها ما لعله ينقل أمر الترجيح حول عصر الراغب إلى ما يشبه الحسم، معتمداً في ذلك على كتاب محاضرات الأدباء.

١- ورد في محاضرات الراغب (١: ١١٩ ط. دار الحياة، بيروت)* ما يلي:

"أبو القاسم قال: **كُتِبَ** إلى أبي القاسم بن أبي العلاء أبياتاً أستعير منه شعر عمران

* رقم (١) يعني الجزئين الأول والثاني وهما متتابعاً الترقيم ورقم (٢) يعني الجزئين الثالث والرابع.

بن حطان، وضمنتها أبياتاً لبعض من امتنع عن إعارة الكتب إلا بالرهن، وأبياتاً عارضها بها أبو علي بن أبي العلاء" ثم أورد الأبيات وعلّق على ذلك بقوله (١: ١٢٠): "والغرض في ذلك ما قاله أبو القاسم (أي ابن أبي العلاء) لا ما خاطبته به، أعوذ بالله أن أكون ممن يزري بعقله بتضمين مصنّفات شعر نفسه".

فأبو القاسم المذكور في أول الرواية هو الراغب الأصفهاني نفسه، وهو يصرّح أنه يكتب إلى أبي القاسم بن أبي العلاء، أي هو معاصر له، ولدى البحث عن ترجمة أبي القاسم بن أبي العلاء وجدت أنه من رجال الصاحب بن عباد، فقد كان بين الشعراء الذين وصفوا داراً للصاحب بناها بأصبهان وأنشده قصيدة منها (اليثيمة ٣: ٢٤٣):

دار تمكنت المباهج فيها نطقت سعود العالمين بفيها

وله قصيدة في برزون أبي عيسى المنجم الذي نفق بأصبهان، ونظم الشعراء فيه مراثي كثيرة باقتراح من الصاحب نفسه (اليثيمة ٣: ٢٢١)، وقد ترجم له الثعالبي في اليثيمة (٣: ٣٢٤ - ٣٢٥) فذكر اسمه "غانم" وقال فيه: "شاعر ملء ثوبه، محسن ملء فمه، مرغوب في ديباجة كلامه، متنافس في سحر شعره، ولم يقع إليّ ديوانه بعد، وإنّما حصلتُ من أفواه الرواة على قطرة من سيج غُرّره، وغيضٍ من فيض ملحه..."، فإذا عرفنا أن أبا القاسم هو ابن أبي علي (كما صرّح بذلك الراغب نفسه في المحاضرات ٢: ٥٧٩) كان هذا الرجل هو غانم بن أبي علي بن أبي العلاء الأصفهاني، وقد كان حياً بعد وفاة الصاحب سنة ٣٨٥ لأن له قصيدة في رثاء الصاحب (اليثيمة ٣: ٢٨٤). وقد اهتمّ الراغب بأبي القاسم وأبيه في محاضراته فأورد

لهما بعض الأشعار (انظر: ٣٠٢، ٣٩٦، ٦٢٦، ٥٢٧، ٥٧١) ٥٧٩، فالنص الذي ورد في المحاضرات يوضح الأمور التالية:

(أ) أن الراغب عاصر أبا القاسم بن أبي العلاء وأباه، أي عاش في عصر صاحب بن عباد قطعاً لا ترجيحاً، وقد عرف البيئة الأصبهانية معرفة دقيقة، كما يؤكد ذلك رواياته عن شؤون أصبهانية لا يعرفها إلا من كان له اهتمام خاص بتلك البيئة، وعرف كثيراً من رجالات أصبهان وشعرائها، وأورد بعض أشعارهم وأخبارهم في محاضراته (راجع قصصاً عن أصبهان في المحاضرات ٢: ٤٤٨ - ٤٤٩، ١: ٣٥٢، ٤١٩).

(ب) أنه كان مهتماً بديوان عمران بن حطان، ولا نحسب أن يصدر مثل هذا الاهتمام عن رجل شيعي.

(ج) أن الراغب كان ينظم شعراً، ولكنه التزم بأن لا يذكر شيئاً من شعره في مؤلفاته.

٢- يؤكد الراغب معاصرته لأبي القاسم بن أبي العلاء في موطن آخر من محاضراته (١: ٨٦) إذ يقول: "أنشد أبو القاسم بن أبي العلاء يوماً شعراً كاتّب به رئيساً، وكنا سمعناه منه قبل، فعوتب في ذلك فقال: أنا نظمته أقلد به من أشاء".

٣- يروي الراغب على نحو مباشر عن أبي الفرج الكوفي فيقول (محاضرات ٢: ٤٤٩): حكى أبو الفرج الكوفي قال: حضرت مجلس صاحب وعنده علوي شامي يحدثه بما شاهده من الأعاجيب... إلخ".

فهذا معاصر آخر للصاحب يروي عنه الراغب، والمكتون بأبي الفرج كثيرون، منهم هذا الكوفي، وأبو الفرج الساوي (اليتيمة ٣: ٣٧٧) وأبو الفرج بن هندو (اليتيمة ٣: ٣٩٧ وابن أبي أصيبعة ١: ٣٢٣) وأبو الفرج الكاتب حمد بن محمد وهو أصبهاني، وكان مكيناً عند ركن الدولة البويهى، وكان أبو الفضل بن العميد لا يوفيه حقه (أخلاق الوزيرين: ٤٢١) وأبو الفرج البغدادي الصوفي (أخلاق الوزيرين: ٢٧٩).

٤- ويقول الراغب في محاضراته أيضاً (١: ٧٠٦): "وحدثني أبو سعيد بن مرداس أنه قعد مع جماعة فيهم ابن بابك تحت عريش كرم يشربون فأصابهم مطر فقال ابن بابك..."، ولم أهتم إلى ما يوضح مكانة أبي سعيد ابن مرداس وشهرته، ولكنه على أية حال عاصر عبدالصمد بن بابك الشاعر (المتوفى سنة ٤١٠)، وابن بابك من الوافدين على صاحب وله فيه مدائح كثيرة.

٥- وجاء في المحاضرات (١: ٤٣٣): "كتب علي بن القاسم رحمه الله: بلغني عن حال رمدٍ عرض له ما أرمد خاطري، وأظلم ناظري، وأذهلني عن كل مهمّ، وخفف في عيني وقلبي كلّ ملم". هذا الترحم على علي بن القاسم لم يجئ عفواً، وإنما هو يدل على معرفة أو صداقة بين الراغب وهذا الكاتب، وقد كان علي بن القاسم الكاتب معاصراً للتوحيدي أي معاصراً للراغب الأصبهاني والصاحب، وكانت ذكراه ما تزال حيّة لدى تأليف محاضرات الأدباء (انظر أخلاق الوزيرين: ١٢٤، والصداقة والصديق: ١٧٧ ط. دمشق، والإمتاع والمؤانسة ١: ٦١).

٦- لا مجال للشك في أنّ "الأستاذ الرئيس" هو أبو العباس الضبي، فقد ذكره الراغب بلقبه فقط (أي الأستاذ الرئيس) دون ذكر اسمه في محاضراته (٢: ٦٤) وأورد له البيتين التاليين:

لا تـركننْ إـلى الـوداع وإن سـكنت إـلى العـناق
فالشـمسُ عـند غـروبـها تصـفرُّ مـن خـوف الفـراق

وقد أورد الثعالبي هذين البيتين في اليتيمة (٣: ٢٩٥) لأبي العباس أحمد بن إبراهيم الضبي. وذكر ياقوت في معجم الأدباء (٢: ١٠٥) أن "الكافي الأوحـد" من ألقاب الضبي، ونقل ذلك الدكتور الساريسي عنه، وبهذا اللقب أي "الوزير الرئيس الكافي الأوحـد" ذكره الراغب في المحاضرات (١: ٤٣٥) وأورد له أبياتاً في وصف نزلة أصابته، ولم ترد هذه الأبيات في اليتيمة. وَذِكْرُ الضبيِّ على هذا النحو يقرر حقيقة الصلة - والمعاصرة- بينه وبين الراغب الأصفهاني.

وفي المحاضرات أيضاً نصوص تلقي بعض الضوء على شخصية الراغب، فمن ذلك:

١- وقلت لبعض المتصوفة: إنك لو طي فقال: ما تقول في لصٍّ لا يسرق، هل يلزمه القطع؟ (١: ٢٢٧).

٢- أورد (١: ٦٢٩) قصةً عن فرقد السبخيِّ والحسن البصري حين اجتماعا على مائدة وأبى فرقد أن يأكل الخبيص خوفاً من أن لا يؤدي شكر الله تعالى عليه فقال له الحسن: كُلْ فلنعمه الله عليك في الماء البارد أعظم منها في الخبيص.

وعلق المؤلف على القصة بقوله: قال الشيخ أبو القاسم رحمه الله: فانظر إلى فقه الحسن وفهمه وإلى ضعف رأي فرقد مع إسلامه، واعتبر بهما قول النبي ﷺ:

فضلُ العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادَةِ، ولفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ.

٣- وذكر القصة التالية (٢: ٤٠٦): قال عمر بن عبيد الله لرجل: عطني، فقال: قد قطعت عامّةً سفرك فإن استطعتَ أن لا تضلَّ في آخره فافعل.

وكان تعليقه عليها: قال المؤلف: وأنا أقول قد ضللتُ عامةً سفري، فإن لم يهديني الله فويلٌ لي، ختم الله لي بخيرٍ ولمن كتب وقرأ.

ترى هل هذا التعليق يفيد أن مصنفاته الأدبية كتبت في أوائل عمره كما يوحي بذلك حديث الدكتور الساريسي (مجلة المجمع: ٥٧) أو هو يدل على عكس ذلك، إلا أن يكون قد ردّد النظر في بعض مؤلفاته المبكرة، حين أصبح في سنٍّ عالية، فأضاف مثل هذه العبارة.

٤- وقال بعد أن أورد عدداً من التمنيات (١: ٤٥٦): نسأل الله أن يعطينا مُنانا بعد أن يوفّقنا لتمنّي ما فيه مصالحنا.

بقي أن أقول إن التدقيق في محاضرات الراغب يؤكد كثيراً من النتائج التي وصل إليها الدكتور الساريسي مثل إعجاب الراغب بالمتنبي ومعرفته قصصاً دقيقة عن صاحب لم يلمّ بها أبو حيان أو الثعالبي، وإيراده أشعاراً كثيرةً للصاحب قد توازي ما أورده للمتنبّي، كما أنه يذكر كتاباً اسمه "الأحداق" (٢: ٥٣٣) ولعلّه أن يكون أحد مؤلفاته.

أمّا لماذا تجاهلته كتب التراجم (ما عدا البيهقي في تاريخ الحكماء والسيوطي في بغية الوعاة) فكلّ التعليقات التي أوردها الباحث لا تثبت للمناقشة، وأرى أن الأمر

ليس من قبيل التجاهل (والأ فكيف وصل ذكره إلى البيهقي؟). لا بد أن تكون هناك مصادر سابقة للبيهقي قد عرّفت به ولكنها لم تصلنا، ولعلّ لزومه لأصفهان وعدم مبارحتها- فيما أقدر- قد جعله بعيداً عن "دائرة الضوء"، ولهذا السبب نفسه ولأسباب أخرى تقديرية لم يذكره التوحيدي بين من سأله عن آرائهم في الصحاب. بلى، أرجّح أنه ذكره في قوله: "وقلت للشيخ العالم: أما أنت من بين الناس فقد حظيتَ عنده ونلتَ منه، فقال: لو عرفتَ ما ينقد على فؤادي من الغيظ عليه لرحمتني في بلاتي بأكبر مما تحسّدي عليه في ظاهر أمري" (أخلاق الوزيرين: ٣١٦)، فهذا "الشيخ العالم" مقرب من الصحاب، كما تنطق بذلك حال الراغب، ولكن الراغب نفسه على إعجابه بالصحاب لا يتورع عن إيراد النادرة وإن كان فيها غمز للصحاب، جاء في المحاضرات (١: ٣٧٦).

وقال العثماني في الصحاب:

وفدنا لنشكر كافي الكفاة ونسأله الكفّ عن برّنا

فقال العلوي: قد كُفيت فإن الصحاب صار لا يعطي شيئاً.

فإن لم يكن هذا "الشيخ العالم" هو الراغب الأصبهاني نفسه، فإن أبا حيان لم يلقه، لأن إقامته عند الصحاب كانت في فترة إقامة الصحاب بالريّ، كما كانت علاقة الراغب بالصحاب وثيقة يوم كان هذا الثاني باصبهان.

في العدد السابق نفسه من مجلة المجمع الأردني مراجعة لكتاب "أخبار أبي القاسم الزجاجي" تحقيق الدكتور عبدالحسين مبارك (بغداد: ١٩٨١) والمراجعة بعنوان: "مع تحقيق كتب التراث" (ص ٩٢ - ١١٥) بقلم صديقنا الدكتور إبراهيم السامرائي، والكتاب موضوع المراجعة قيم وإن كان يلتقي مع "أمالى الزجاجي" في كثير من النصوص، إلا أنه بائس تحقيقاً وطبعاً، ولا يتدارك ما فيه من أخطاء تصويب هنا أو هناك، ولا نُصَحُّ الدكتور السامرائي للمحقق بأن يتولى إعادة التحقيق، وأنا أعتقد أن الجهود التي تبذل في تصحيح بعض أخطاء هذا الكتاب تذهب هباءً، وأقول لصديقي الدكتور السامرائي: يبدو أنك تشهر سيفك على أعزل (وليس هذا مقبولاً في شرعة الفروسية).

وقد لفت نظري في المراجعة (ص: ١١٠) بيتان كتبهما إسحاق الموصلي إلى عَرِيب المأمونية وذكر المحقق أنهما لا يوجدان في ديوان إسحاق، وقال الدكتور السامرائي تعليقاً على ذلك: "كأنه لم يعرف أنَّ الديوان هو صنعة حديثة فقد جمع أشعاره أحد المعاصرين"، قلت: ولعلَّ السرَّ في عدم ورودهما في ديوان الموصلي أنهما ينسبان في معظم المصادر إلى علي بن الجهم، وأنا أكتفي بالإشارة إليهما في الأغاني (١٠: ٢٢١ ط. دار الثقافة) وروايتهما فيه*:

خَفِيَ اللهُ فِي مَنْ قَدْ تَبَلَّتْ فَوَادِهِ وَغَادَرَتْهُ نَضُوءاً كَأَنَّ بِهِ وَقَرَا
دَعِيَ الْبَخْلَ لَا أَسْمَعُ بِهِ مِنْكَ إِنَّمَا سَأَلْتُكَ أَمراً لَيْسَ يَعْرِى لَكُمْ ظَهراً

* يستطيع القارئ أن يجد القصة والبيتين في العقد ٦: ٧١ والبصائر ١: ٢٢١ - ٢٢٢ وديوان علي بن الجهم: ١٤٠.

ويقول الدكتور السامرائي (ص ١١٣): إن هدية بن الخشم شاعر جاهلي، وهذا فيما أعتقد غير دقيق. صحيح أن هدية كان- فيما يذكرون- راوية الحطيئة، ولكن الحادثة التي أدت إلى مقتله جرت حين كان سعيد بن العاص والياً لمعاوية على المدينة. وفي أخبار هدية في المصادر المعتمدة ما يؤكد ذلك.

كذلك علّق الدكتور السامرائي على ما ورد في الصفحة ١١٩ من أصل الكتاب (المجلة ص ١١١ - ١١٢) تعليقاتٍ وفق في بعضها ولم يوفق في بضعها الآخر، وما انتزعه ليعلق عليه ليس سوى قليلٍ من كثير من التصحيف والتحريف اللذين أصابا ذلك النص، وقد ورد الخبر نفسه في التذكرة الحمدونية (عمومية رقم: ٥٣٦٣ الورقة: ٥٩)، وأنا أثبتته كاملاً ليتضح مدى البون بينه وبين النص الوارد في أخبار الزجاجي وأشرح منه ما يحتاج إلى توضيح:

"ومن الحمية والأنف ما رواه أبو رياش يسنده إلى رجل من كندة كوفي قال: كنت أجالس شريحاً، وهو قاض لأمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، فإني لفي مجلسه ذات يوم إذ أقبل رجل جيدر^(١)، صعل الرأس، نأتى الجبهة، ثط اللحية^(٢)، كأنه محراث، ومعه امرأة كالبكرة العيساء^(٣)، تدير مقلتين نجلوين كأن هديهما قوادم خطاف، ثم أبرزت كفاً كبياض الإغريض^(٤) وأنامل كبنات النقا^(٥)، فقالت: أيها الحاكم

١ . الجيدر: القصير .

٢ . صعل الرأس: صغير الرأس، ثط اللحية: قليل شعر اللحية.

٣ . العيساء: الناقة البيضاء في شقرة.

٤ . الإغريض: الطلع إذا انشق عنه وعأوه.

٥ . بنات النقا: دود يشبه به العرب الأنامل وهي الأساريع.

هذا بعلي؛ فقال شريح للرجل: أذاك؟ فكشر بشفتين بشعاوين^(٦) عن ثنايا ثعل^(٧) كأنها سناسنُ عَيْر فقال: نعم، فقال شريح للمرأة: وما قِصْنُكَ؟ قالت: إنه ابن عمي وأنا خولة ابنة مخرمة إحدى نساء بني جرم بن زيان، وإنه خرج بي وغرّني عن بلادي وقومي وذوي قرابتي، فصرتُ لا أنظر إلا إليه ولا أعولُ إلا عليه، وهو نهمٌ إذا أكل، فَلَحَسَ^(٨) إذا سأل، حريصٌ مقفل اليدين بالبخل، مُطْلَقُ اللسان بالخطَل، يأكلُ وحده، ويُخْلِفُ وعده، ويمنعُ رفده، ويضربُ عبده، فَحَاشَ نَجَّاش^(٩)، إن سانيتُ^(١٠) قطَّب، وإن راشيتُ^(١١) غضب، يصونُ ماله، وَيُهَيِّئُ عياله، فقال شريح: تالله ما رأيتُ كالיום ذمًّا أشنع، أَحْسَنِي مَلَأَ^(١٢) أيتها الحرة، فإنه بعلك وابن عمك، فجثا الرجل على ركبتيه ثم قال: يَا لِأَفِيكَ^(١٣) أَيُّهَا الْحَاكِم:

٦ . بثعت الشفة: غلظ لحمها وظهر دمه.

٧ . ثعل: متداخلة، نبت واحدها تحت الآخر.

٨ . فلحس: كلب، وتريد به شدة الإلحاح.

٩ . النجاش: الوقاع في الناس.

١٠ . سانيت: من المساناة وهي المداراة والملاينة.

١١ . راشيت: لاينث.

١٢ . أحسنني ملأ: أحسنني عشرة وخلفاً (وفي بعض نسخ التذكرة، أحسنني كلاماً).

١٣ . الأفيك: البهتان والكذب.

١٤ . الكوماء: الضخمة السنام، كائسة: عقيرة.

١٥ . الشفان: الريح الباردة، الخصر: البرد.

١٦ . المرادغ: ما بين الترقوة والعنق.

١٧ . العوصاء: الغريبة.

١٨ . الهجارس: أولاد الثعالب، الهصر: الأسد الذي يهصر كل شيء أي يدقه.

سائل سرّاة بني جرّم فإنهم قد ينبئونك بالجالى من الخبر
هل أترك البكرة الكوماء كائسة^(١٤) إذا تلاعبت النكباء بالخطر
للجار والضيف والمعتّر قد علموا في ليلة تُتبع الشفان بالخصر^(١٥)
وأترك الخصم مصفراً أنامله دامي المراءغ^(١٦) منكباً على العفر
وأنظرُ الخصم ذا العوصاء حفته^(١٧) حتى يلجلج بين العي والحصر
واسألهم هل رمّوا بي صدر معضلة فلم أكافح شبا أنيابها البئر
واسألهم كيف ذبّى عن ذمارهم إذا ترامى استعارُ الحرب بالشرر
إني لأعظم في صدر الكمي على ما كان في من التجدير والقصر
حتى يصدّ لواءاً عن مبادهتي صدّ الهجارس عن ذي اللبدة الهصر^(١٨)
تالله تجمعُ شخصينا ملاءمةً من بعد ذا اليوم في بدو ولا حصر

فقال شريح: أوضح عن نيتك، عافاك الله، قال: نعم هي طالق ثلاثاً، وهذا
السائب بن عمرو فهو ابن أبي أمها^(١٩) يقوم بمؤونتها إلى انقضاء عدتها.

١٩. أخبار الزجاجة: وهذا الشاب (اقرأ: السائب) بن أبان بن أبي وليها.

١٩. أخبار الزجاجة: وهذا الشاب (اقرأ: السائب) بن أبان بن أبي وليها.